خادمة الإسلام
http://guidanceforall.wordpress.com

الطريق

إلى الله والدار الآخرة

الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

فَهُمُ الَّذِينَ قَدْ أَخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ
مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الإِيمَانِ

هاتان القاعدتان، وهما: الإخلاص، والمتابعة، شرط لكل عبادة، ظاهرة وباطنة، فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، وكل عمل لا يكون على سنة رسول الله ﷺ فهو مردود، فإذا اجتمع للعمل الإخلاص للمعبود، وهو: أن يراد بالعمل وجه الله وحده، والمتابعة للرسول ﷺ، وهو: أن يكون العمل قد أمر به فهذا هو العمل المقبول.

وهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ
بَيْنَ الرَّجَا وَالخَوفِ للدَّيَّانِ

أي سارُوا في جميع أمروهم مستصحبين وملازمين للخوف والرجاء، وذلك أن لهم نظراً أي نظر إلى أنفسهم وتقصيرهم في حقوق الله يُحدث لهم الخوف، ونَظَرٌ على منن الله عليهم وإحسانه إليهم يُحدث لهم الرجاء.

وأيضاً ينظرون إلى صفات العظمة والجلال، والحكمة والعدل، فيخافون على أنفسهم من ترتب آثارها، وينظرون إلى صفات الرحمة والجود والكرم والإحسان فيرجون ما تقتضيه، فإن فعلوا حسنة جمعوا بين الخوف والرجاء فيرجون قبولها ويخافون ردها، وإن عملوا سيئة

عافوا من عقابها ورجوا مغفرتها بفضل الله، فهم بين الخوف والرجاء يترددون، وإليهما دائماً يفزعون، ومنهما في أمر سيرهم مترددون، فأولئك الذين أحرزوا قصب السبق وأولئك هم المفلحون.

وَهُمُ الَّذِينَ مَلا الإِلَهُ قُلُوبَهُمْ
بِوِدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَانِ

هذه المنزلة، وهي منزلة المحبة، هي أصل المنازل كلها، ومنها تنشأ جميع الأعمال الصالحة والنافعة، والمنازل العالية.

ومعنى المحبة: تعلق القلب بالمحبوب، ولزوم الحب للقلب فلا تنفك عنه، تقتضي من صاحبها الانكفاف عما يكره الحبيب ، والمبادرة إلى ما يرضيه بقلب منشرح وصدر رحيب، فإن تكلم تكلم بالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فلله، وإن سكن فله، ويحدث عن الحب الشوق إلى الله، والقلق، فلا يكاد صاحبه يستقر.

فإن قيل: فهل المحبة التي هي أعلى المراتب من وسيلة وسبب؟

قيل : لم يجعل الله مطلباً إلا جعل لحصوله سبباً، فمن أكبر أسبابها الانكفاف عن كل قاطع بالقول والفعل والأفكار الردية، والإكثار من ذكر الله بحضور قلب وتدبر كلامه الكريم، ومطالعة نعمه العظيمة على العبد، وبالوقوف بين يديه بحضور قلب وأدب في الوقوف

وأوصى لِشخصٍ قد أتـى لنصيحـةٍ
وقدْ كانَ في حَمْلِ الشَّـرائِعِ يَجهـدُ
بأنْ لا يزالُ رَطْبـاً لسانُـكَ هَـذِهِ
تُعينُ على كـلِّ الأمـورِ وتَسْعُـدُ
وأخْبَرَ أنَّ الذِّكْـرَ غُـرِسَ لأهلِـهِ
بجنَّـاتِ عَـدْنٍ والمَسَاكُـنُ تُمهَـدُ
وأَخْبَـرَ أنَّ اللهَ يَـذْكُـرُ عَبْـدَهُ
ومعهُ على كـلِّ الأمـورِ يسـدِّدُ
وأَخْبرَ أنَّ الـذِّكْرَ يَبْقـى بِجَنَّـةٍ
ويَنْقَطِعُ التَّكليـفُ حِيْـنَ يُخلَّـدوا
ولَوْ لم يَكُنْ في ذِكْـرِهِ غَيْرَ أنَّـهُ
طَريقٌ إلى حُـبِّ الإلـهِ ومُرشِـدُ
ويُنهى الفتى عَـنْ غيـبةٍ ونميمـةٍ
وعنْ كُلِّ قَـوْلٍ للدِّيانَـةِ مُفسِـدُ

لَكَانَ لَنـَا حـظٌّ عَظِيـمٌ ورَغْبَـةٌ
بِكَثْـرَةِ ذِكْـرِ اللهِ نِعـمَ المُوَحَّـدُ
ولكنَّنا مِـنْ جَهلِنـا قـلَّ ذِكْرنـا
كَمَـا قَـلَّ مِنَّـا لِلإلـه التَّعَبُّـدُ

وذكر الله نور للذاكر في قلبه، وفي قوله، وفي قبره، ويوم حشره، والله المستعان.

يَتَقَـرَّبُـونَ إلى المَلِيـكِ بِفِعْلِهِـمْ
طَـاعَـاتِـهِ و التَّـرْكُ لِلْعِصْيَـانِ

هذه الأعمال التي تقرب من الله، وتوصل إليه، وهو فعل طاعته، لا سيما الفرائض وترك معاصيه، كما في الحديث القدسي: (وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه) [1].

فلهذا قلت :

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

خادمة الإسلام
http://guidanceforall.wordpress.com

فِعْلُ الفَرَائِضِ و النَّوافِلِ دَأْبُهُمْ
مع رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ و النُّقْصَانِ

هذا هو الكمال، وهو أن يجتهد في أداء الفرائض، والإكثار من النوافل، ويرى نفسه مقصراً مفرطاً، فاجتهاده في الأعمال ينفي عنه الكسل، ورؤية تقصيره ينفي عنه العجب الذي يبطل الأعمال ويفسدها.

صَبَّرُوا النُّفُوسَ عَلَى المَكَارِهِ كَلِّهَا
شَوْقاً إلى مَا فِيْهِ مِنْ إِحْسَانِ

الصبر، هو حبس النفس على ما يكره الإنسان إذا كان فيه رضى الرحمن، والصبر ثلاثة أقسام:

صبر على طاعة الله حتى يؤديها.

وصبر على معاصي الله حتى يتركها.

وصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسنها.

فإذا كسلت نفسه عن طاعة الله حثها عليها وألزمها ورغبها إياها بثوابها، وإذا اشتدت دواعي نفسه إلى معصية الله كفها عنها وحذرها وبالها وعاقبة فعالها، فالصبر محتاج إليه في كل الأمور.

نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَى فَهُمْ بِهَا
قَدْ أَصْبَحُوا فِي جُنَّةٍ و أَمَانِ

منزلة الرضى أعلى من منزلة الصبر ، فإن الصبر حبس النفس وكفها على ما تكره، مع وجود منازعة فيها، وبالرضى تضمحل تلك المنازعة، ويرضى عن الله رضى مطمئنٌ منشرح الصدر، بل ربما تلذذ بالبلاء كتلذذ غيره بالرخاء، وإذا نزل العبد بهذه المنزلة طابت حياته وقرت عينه، ولهذا سُمِّيَ الرضا : « جنة الدنيا ومستراح العابدين »، ومن رضي عن الله رضي الله عنه، ومن رضي من الله باليسير من الرزق رضي الله منه باليسير من العمل؛ فحقيقة الرضى: تلقي أحكام الله الأمرية الدينية، وأحكامه الكونية القدرية بانشراح صدر وسرور نفس، لا على وجه التكره والتلمظ.

شَكَرُوا الَّذي أَوْلَى الخَلائِقَ فَضْلَهُ
بِالقَلْبِ و الأَقْوَالِ و الأَرْكَانِ

الشكر يكون بالقلب، وهو الاعتراف بنعم الله والإقرار بها، وعدم رؤية نفسه لها أهلاً ، بل هي محض فضل ربه، ويكون باللسان، وهو الثناء على الله بها، والتحدث بها، فيكون بالجوارح، وهو كفها عن معاصي الله، والاستعانة بنعمه على طاعته، فإن أعطاه شيئاً من الدنيا شكره

عليه ، وإن زوى عنه شيئاً منها شكره أيضاً؛ إذ ربما كانت نعمة عليه صارفة منه شراً أعظم منها، وإن وفقه لطاعة من الطاعات رأى المنة لله في توفيقه وشكره عليها والله المستعان.

صَحِبُوا التَّوكُّلَ في جَمِيعِ أُمُورِهِمْ
مَعَ بَذْلِ جُهْدٍ في رِضَى الرَّحْمَانِ

يكمل العبد في هذين الأمرين، وهما: التوكل على الله، والاجتهاد في طاعة الله، ويتخلف عن العبد الكمال بفقد واحد منهما، فحقيقة التوكل يجمع أمرين: الاعتماد على الله، والثقة بالله، فيعتمد على ربه بقلبه في جلب ما ينفعه في أمر دينه ودنياه، فيتبرأ من نفسه وحولها وقتها، ويثق بالله في حصول ما ينفعه ودفع ما يضره، ويجتهد في الأسباب التي يتوصل بها إلى المطلوب.

وتفصيل ذلك: أنه إذا عزم على فعل عبادة، بذل جهده في تكميلها وتحسينها، ولا يبقى من مجهود مقدور، وتبرأ من النظر على نفسه وقوتها، بل لجأ إلى ربه واعتمد عليه في تكميلها، وأحسن الظن ووثق في حصول ما توكل به عليه، وإذا عزم على ترك معصية قد دعته نفسه إليها بذل جهده في الأسباب الموجبة لتركها، من التفكر بها وصرف الجوارح عنها، ثم اعتمد على الله ولجأ إليه في عصمته منها،

وأحسن الظن به في عصمته له، فإنه إذا فعل ذلك في جميع ما يأتي ويذر، رجا له الفلاح إن شاء الله تعالى.

وأما من استعان بالله وتوكل عليه، مع تركه الاجتهاد اللازم له، فهذا ليس بتوكل، بل عجز، ومهانة، وكذلك من يبذل اجتهاده ويعتمد على نفسه ولا يتوكل على ربه فهو مخذول.

عَبَدُوا الإلهَ عَلى اعتِقَادِ حُضُورِهِ
فَتَبوَّءُوا فِي مَنْزِلِ الإِحْسَانِ

هذه المنزلة يقال لها : منزلة الإحسان، وهي كما فسرها النبي ﷺ : **(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**[1]، فإذا تصور الإنسان هذا المقام في جميع أحواله ــ لا سيما حال العبادة ــ منعه من الالتفات بقلبه إلى غير ربه، بل أقبل بكُلِّيته على الله، وتوجه بقلبه إليه متأدباً في عبادته آتياً بجميع ما يكملها، مجتنباً كل منقص لها، وهذه المنزلة من أعظم المنازل وأجلها، ولكنها تحتاج إلى تدريج للنفوس شيئاً فشيئاً، ولا يزال العبد يعودها نفسه حتى تنجذب إليها وتعتادها، فيعيش العبد قرير العين بربه، فرحاً ومسروراً بقربه.

---

(١) قطعة من حديث جبريل الطويل المشهور أخرجه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

نَصَحُوا الخَلِيْقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِم
بِالْعِلْمِ والإِرْشَادِ و الإِحْسَانِ
صَحِبُوا الخَلائِقَ بِالْجُسُومِ وَإِنَّمَا
أَرْوَاحُهُمْ فِي مَنْزِلٍ فَوْقَانِي

هذه حالهم مع الخلق، أكمل حال وأجلها، فأبدوا لهم غاية النصح، وأحبوا لهم ما أحبوا لأنفسهم من الخير، وكرهوا لهم ما كرهوا لأنفسهم من الشر، فسعوا في إزالة الشر عنهم بكل ممكن، واجتهدوا في إيصال النفع إليهم بكل مقدور ، من: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وإغاثة ملهوفهم، وتعليم جاهلهم، وردع ظالمهم، ونصر مظلومهم، واحتمال أذاهم، وكفهم أذى أنفسهم عنهم، ومع هذا فصحبتهم لهم بالظاهر والجسم، وأما قلوبهم وأرواحهم، فإنها تجول حول الحبيب وتطلب من قربه أعظم نصيب، فتارة تنكسر بين يديه، وتخشع وتخضع لديه، وطوراً تشكره لحبه، وتدل لاستحضار بره وقربه، ثم تميل إلى مراضيه، فتجتهد في عبادته وتحسن إلى مخلوقاته، فهؤلاء هم الناس، بل هم العقلاء الأكياس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أَلا بِالله دَعَوْت الخَلائِقَ وِالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا
خَوْفَاً على الإِيْمَانِ مِنْ نُقْصَانِ

هذه منزلة الرعاية لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان، وذلك أن العبد لا ينبغي له أن يعرض عن تدبر أحواله، والتفكر في نقص أعماله، بل يبذل جهده قبل العمل، وفي نفس العمل وتصحيحه وتحسينه، ثم يصونه عن المفسدات، وينزهه عن المنقصات، فإن حفظ العمل أعظم من العمل، فكلما ازداد العبد رعاية لعمله واجتهاداً فيه ازداد إيمانه، وكلما نقص من ذلك نقص من إيمانه بحسبه.

ومن أعظم ما ينبغي مراعاته في العمل: مشهد الإحسان، وهو الحرص على إيقاع العبادة بحضور قلب وجمعية على الله، وكذلك مراعاة مِنَّةَ الله على العبد، وأنه ينبغي له أن يشكر الله على توفيقه لذلك العمل أعظم شكر، وكذلك مراعاة التقصير، وأنك لم تُؤتِ العبادة حقها، ولا قمت بجميع ما تستحقها، وكذلك مراعاة الخوف والرجاء: يخاف من ردها بعجب، أو رياء، أو تكبر بها، أو عدم قيام بحقها، أو غير ذلك، ويرجو قبولها برحمة ربه ومنه، وإحسانه إليه الذي من جملته توفيقه لها .

عَزَفُوا القُلُوبَ عَنِ الشَوَاغِلِ كُلِّها
قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِوى الرَّحْمَانِ

حَرَكَاتُهُم و هُمُومُهُـم وَعُزُومُهُـمْ
لله، لاَ لِلْخَلْـقِ و الشَّـيْطَـانِ

أي فرَّغوا قلوبهم عن جميع ما يشغل عن الله ويبعد عن رضاه، وهذا حقيقة الزهد، ولا يكفي هذا التفريغ حتى يمتلئ القلب من الأفكار النافعة والعزوم الصادقة، فتكون أفكار العبد في كل ما يقرب إلى الرحمن من : تصور علم، وتدبر قرآن، وذكر الله بحضور قلب، وتفكر في عبادة وإحسان، وخوفاً من زلة وعصيان، أو تأمل لصفات الرحمن، وتنـزيهه عن جميع العيوب والنقصان، أو تفكر في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأهواله، أو في الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، فأفكارهم حائمة حول هذه الأمور، متنـزهة عن دنيات الأمور، والتفكر بما لا يجدي على صاحبه إلا الهم والوبال، وتضييع الوقت، وتشتيت البال غير نافع للعبد في الحال والمآل.

نِعْمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي
تُفْضِي إلى الخَيْرَاتِ وَالإِحْسَانِ

فهؤلاء هم الذين يسعد بهم رفيقهم إذا اقتدى بسلوك سيرهم فريقهم، وهؤلاء الذين أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا طريقهم إذا أنعم عليهم بصدق إيمانهم وتحقيقهم.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، وأن يجنبنا طرق الغضب والضلال الموصلة إلى الخزي والوبال، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

والله أسأل وبأسمائه الحسنى وصفاته ونعمته أتوسل أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان والغفران، بِشَرِّ ما عندنا من التقصير بحقوقه والعصيان، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً للفوز عنده في جنات النعيم.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً مباركاً فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

وصلى الله على محمد النبي الأمي المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.

قال مؤلفه:

فرغت منه ومن نسخه في ٣ شعبان سنة ١٣٣٣ هـ

وقد تم بقلم الفقير إليه عبده

عبد العزيز بن حمد المصيريع

في ٢٨ شوال سنة ١٣٤٢ هجرية